

## إسرائيل تستسلم لأخطائها

أوغوستوس نورثون\*

بمقدورنا أن نبني حجة عقلانية جداً لكي تحافظ إسرائيل على وضعها الراهن حيال لبنان، بدلاً من مهاجمته بهدف مفترض هو نزع سلاح حزب الله. فبغض النظر عن «حادثة الشجرة» مطلع آب هذا العام، فإن حدودها مع لبنان هادئة جداً منذ انتهاء حرب 2006. وباستثناء الأراضي المتنازع عليها في مرتفعات الجولان المحتل، وبخاصة مزارع شبعا، فإن المنطقة الحدودية كانت هادئة هي الأخرى منذ الانسحاب الإسرائيلي منها عام 2000 وحتى تموز 2006. ومنذ تسعينيات القرن الماضي وقواعد اللعبة بين حزب الله وإسرائيل مفهومة جداً، وأفعالهما وردود أفعالهما محسوبة عموماً (خلافًا لخطبهما). أما تموز - آب 2006 فكانت استثناءً بالطبع.

## هناك حماسة ضعيفة في وزارة الدفاع الأميركية لشن حرب على إيران

ثمة اعتقانات مذهبية لبنانية داخلية مقلقة، ولا سيما بين الشيعة والسنة، لا تلبث أن تندلع في مواجهات قاتلة، كما حصل في أواخر آب بين حزب الله و«جمعية المشاريع». ومع ذلك، فإن رواية حزب الله عن المقاومة ضد إسرائيل مدعومة في أوساط الشيعة دعماً واسعاً، وإن كانت محط سخريه بعض الأوساط اللبنانية الأخرى. ثم إن البيان الوزاري اللبناني بتاريخ تشرين الثاني 2009، وهو الذي تألفت الحكومة اللبنانية الجالية على أساسه، تبني حق «المقاومة»، والزعم الحكومة - في الوقت نفسه وبطريقة متناقضة - بتطبيق قرار مجلس الأمن رقم 1701. ومع أن التعليقات الساذجة في الولايات المتحدة تركز على حاجة الجيش اللبناني إلى نزع سلاح حزب الله، فإنه من

تصور خطة حرب إسرائيلية تستند إلى فرضية هجوم بري وحشي وسريع، يتراقق مع هجوم جوي كاسح بهدف إلى هزم المقاومة اللبنانية في غضون أسابيع، وستبين إسرائيل في هذه الحال، كما يفترض، أن حزب الله لن يردعها.

أما إذا شنت إسرائيل حرباً جوية على بنية إيران النووية، فإنه من المسلم به أن هجوماً إسرائيلياً «وقائياً» على لبنان سوف يكون على قائمة أهداف إسرائيل، لأنه يفترض أن تأتي أول موجة انتقامية إيرانية على شكل صواريخ يطلقها حزب الله. والحق أن إدارتي بوش وأوباما حذرنا، وبحزم، إسرائيل من مغبة قصف إيران؛ وهناك حماسة ضعيفة في وزارة الدفاع الأميركية لشن حرب على إيران.

ونظراً إلى ثقافة إسرائيل الاستراتيجية، وإلى ولعها «المرضي» بالحفاظ على قوتها الردعية، فإنها ستبذل جهودها على لبنان أيضاً بالسعي إلى إعاقة مطامح إيران للهيمنة على المنطقة، وإلى التخفيف - في الوقت نفسه - من الخطر الذي يفرضه حزب الله على إسرائيل. أثناء حكم بوش شجع المسؤولون في «مجلس الأمن القومي» الحرب على غزة بشدة. أما إدارة أوباما، فالأرجح أن تحت إسرائيل على ضبط النفس. غير أن ذلك لن يمنع إسرائيل من شن حرب جديدة إن اختارت القيام بذلك.

قد تسود النصيحة الحكيمة. وقد تتواصل الأوضاع المشحونة على امتداد الحدود الإسرائيلية - اللبنانية لبعض الوقت. لكن القرارات الإسرائيلية غير الحكيمة، والمعادية لأي حل منفتح، باتت شائعة بطريقة متزايدة. يُضاف إلى ذلك أن المسؤولين الإسرائيليين يستسلمون غالباً لخطأ، وهو أن إلحاق الألم بلبنان سيضعف من دعم حزب الله - وهذا ما لا يحصل في العادة، وغالباً ما يؤدي إلى نتائج عكسية.

\* أستاذ الأنثروبولوجيا والعلاقات الدولية في جامعة بوسطن، وأستاذ زائر في مادة سياسات الشرق الأوسط في جامعة أوكسفورد. وهو أيضاً عضو في مجلس العلاقات الخارجية. آخر كتبه: حزب الله: تاريخ قصير (منشورات جامعة برنستون، 2009).

الواضح أن مقاومة إسرائيل تحظى بالموافقة في صفوف الجيش وضباطه؛ واحتمالات نزع الجيش سلاح الحزب معدومة تماماً.

إذا هاجمت إسرائيل لبنان بهدف إضعاف حزب الله، إن لم يكن بهدف هزيمته وتدمير قسم مهم من ترسانته الصاروخية، فإنها ستجاذف بعدم تحقيق هدفها. وفي هذه الحال فإن رواية حزب الله لن تضعف، بل ستعزز مرة أخرى. لقد زعمت مصادر عسكرية إسرائيلية مؤخراً أن حزب الله يمتلك «قواعد» في أكثر من 100 قرية في الجنوب. وهذا يوحي بقيام حملة عسكرية إسرائيلية تسبب دماراً أوسع من دمار حرب عام 2006. غير أن مشهد دمار ينبعث منه اللهب على امتداد الجنوب اللبناني يُرجح أن يُلهم، لا أن يوهن، دعم الناس لحزب الله.

علاوة على ذلك فإن إسرائيل لن تسلم من الأذى إن شنت الحرب على لبنان. فالحال أن نيران الصواريخ المدمرة المنصبة على شمال إسرائيل ستؤدي إلى تهجير مليون إسرائيلي أو أكثر. وإذا وفي حزب الله بوعدته بالثأر لأي هجوم إسرائيلي على لبنان، فإن الأخطار ستتساقط على إسرائيل [كالشلال]. وهذا يقدم، في المحصلة، أسباباً عقلانية لعدم مهاجمة إسرائيل لبنان.

غير أن هناك سبباً وجيهاً قد يستدعي القلق من أن الإسرائيليين لن يردعوا. فإسرائيل - وبدعم سخّي جداً من الولايات المتحدة - ملتزمة بالحفاظ على تفوقها العسكري على أي مزيج من الخصوم الإقليميين. كما أن الثقافة الاستراتيجية الإسرائيلية تؤكد حاجة إسرائيل إلى «الحفاظ على قوتها الردعية»: وهذا يعني أن خصوم إسرائيل - بحسب هذه الثقافة - لن يفكروا جدياً في مهاجمتها لأن هزيمتهم ستكون مؤكدة، وستصعب عليهم إسرائيل قوة عسكرية غير متكافئة إن حاولوا ذلك؛ وما الحملة العقابية على غزة في كانون الأول 2008 إلا مثال على الحالة الأخيرة.

وفي حالة حزب الله تحديداً، فإن إسرائيل تواجه خصماً أعيد تسليحه من جديد، خصماً يزدهي باحتقاره للهيمنة الإسرائيلية. فإذا حصلت ذريعة أو سوء حساب، فلن يستبعد

إسرائيل، بل في أن إيران الردعية النووية قد تشعر أنها أقل ضبلاً للنفس في دعم حزب الله عسكرياً وفي تشجيعه على مهاجمة إسرائيل بترسانته المتزايدة من الصواريخ التقليدية. والإسرائيليون، بصرف النظر عن تبجحهم، لا يتفنون بقدرتهم على مهاجمة بنية إيران النووية بنجاح؛ فلداهم طائرات أقل مما ينبغي، وعلى هذه أن تعمل عند الحاجة الخارجية لمدهم العملاني، وضمن مجال جوي متنازع عليه أو «غير صديق» على الأقل.

وحدها الولايات المتحدة تملك ما يلزم من الطائرات، ومن القواعد في المنطقة، ومن العلاقات الداعمة لها من طرف جيران إيران، لكي تُنجز هذه المهمة بأمل معقول من النجاح. وبالإجمال، فإن إسرائيل تتلخّف لمهاجمة حزب الله في سياق حرب أكبر ضد محور المقاومة، ولكنني أشك في أنها ستفعل ذلك خارج الاحتمال السابق ذكره. ففي النهاية بينت حرب لبنان الثانية عام 2006 أن حملة عسكرية ضد حزب الله وحده ستكون عملاً ضخمة، وإذا لم تهاجم الولايات المتحدة إيران فإن راعي حزب الله الأساس (أي إيران) سيجد طرقاً لمعاوية إسرائيل ولإعادة بناء حزب الله بسرعة.

(3) «الضوء الأخضر» الأوحده الذي ستعطيه الولايات المتحدة إلى إسرائيل في لبنان هو

أن تهاجم الأولى إيران نفسها. غير أنني لا أعتقد أن الولايات المتحدة، وتحديداً في ظل إدارة أوباما التي تسعى إلى أن تنهي تدريجياً حرباً في العراق، وتسعى إلى أن تجد سبيلاً للخروج من أفغانستان، متلهفة على التزام عسكري كبير جديد. إن الوضع في العراق خطراً جداً، وتمتلك إيران هناك عدداً كبيراً من الأوراق الراجعة. وإن هجوماً أميركياً على إيران سيؤدي بلا شك إلى مزيد من التدخل الإيراني في العراق. وعليه، فإنني أشك في أن تدعم الولايات المتحدة هجوماً إسرائيلياً على لبنان، إلا في حال استفزاز خطير يقوم به حزب الله (وهو ما لا يبدي الحزب أية إشارة إليه).

(4) إن مفتاح الحؤول دون هجوم إسرائيلي على لبنان هو أن تكبح الولايات المتحدة نفسها من الهجوم على إيران. المفارقة اللاذعة هي أن الارتباطات المتداخلة بين حزب الله وإيران، التي يشير إليها القادة الإسرائيليون دوماً، لها أسباب قوية أيضاً لكبح إسرائيل نفسها هي الأخرى من الهجوم على لبنان، هذا في حال عدم تورط الولايات المتحدة في صراع أكبر كما سبق الذكر.

\* بروفيسور ورئيس قسم العلوم السياسية في جامعة نورثام. آخر كتبه هو بعنوان: القوة والفعالية العسكرية: وهم الانتصار الديمقراطي (منشورات جامعة جونز هوبكينز، 2008).

ارتكبوها عام 2006 هو أنهم أعلنوا هدفاً طموحاً مُبالغاً فيه: القضاء على حزب الله. فلو كان الهدف المعلن للحرب منع حزب الله من إطلاق صواريخه على إسرائيل، لاستطاعت أن تعلن النصر على نحو مُقنع؛ فالواقع أن الحدود الإسرائيلية - اللبنانية شهدت هدوءاً غير مسبوق بعد الهجوم الإسرائيلي آنذاك، تحديداً بسبب الموت والدمار الهائلين اللذين ألحقهما بالمجتمع اللبناني.

في حرب مقبلة مع حزب الله قد تعلن إسرائيل أن هدفها هو إضعاف قدرات حزب الله الصاروخية في المدى القريب؛ ثم تشن حرب «ترويع وصدم» لنزع بضعة آلاف من صواريخ حزب الله؛ وبعد ذلك تعلن النصر. وفي الوقت نفسه، ومثلما فعلت في غزة تماماً، ستعتمد على تدمير البنية التحتية المدنية اللبنانية لإنذار العالم العربي - الإسلامي بالآلاف يفكر في تقييد حركة إسرائيل في المناورة، ولقلب الشعب اللبناني ضد حزب الله.

لقد أعلن نصر الله مراراً وتكراراً أنه في حال نشوب حرب جديدة فسيكون الرد هو العين بالعين والسن بالسن. سمعة نصر الله بأسرها، وهو يعلم ذلك، تستند إلى التطابق التام بين كلماته وأفعاله، خلافاً للقادة العرب، من عبد الناصر إلى صدام حسين. بكلام آخر، كل الأسباب تؤكد فرضية أن نصر الله يعني ما يقول وأنه سيفي - وينبغي أن يفي - بما وعد به.

من المخيف تصوّر ما ستفعله إسرائيل إذا استهدفت حزب الله تل أبيب، فحين سُئل ضابط رفيع في الأركان العامة الإسرائيلية إن كان القانون الدولي يبيّن إسرائيل، أجاب بلا تردد: «حين تحلق الصواريخ فوق تل أبيب في الحرب المقبلة، ونحن نفترض أنها ستفعل، فسندرك بكل القوة اللازمة. لا توهموا أنفسكم أن أحداً سينظر رجال القانون». ويغدو الاحتمال أكثر هولاً إذا اعتبرنا أن هجوماً إسرائيلياً على لبنان قد يستدعي تدخل إيران وسوريا، ولا سيما إذا قررت إسرائيل أن تستعيد حزيان 1967 لتوجيه ضربة قاضية واحدة إلى كل خصومها، أو إذا تصوّرت إيران وسوريا (بحق) أن هجوماً على حزب الله وهزيمته مقدمة للهجوم عليهما. النقطة الجوهرية هي أن إسرائيل لن تتحمل هزيمة أخرى على يد حزب الله، وأن الولايات المتحدة ستدخل إذا أوشكت إسرائيل على الهزيمة، وأن حزب الله لن يتحمل هو الآخر هزيمة على يد إسرائيل، وأن إيران وسوريا ستدخلان هما أيضاً تدخلاً شبه مؤكد إذا أوشك الحزب على الهزيمة. والواقع أن هجوماً إسرائيلياً على حزب الله سيجرّ سلسلة من ردود الفعل التي لن يريد أي إنسان عاقل أن يتصوّر أبعادها!

يظهر أن حسابات حزب الله تقول إن تصميمه المعلن على ضرب الجبهة الداخلية الإسرائيلية، في حال هجوم إسرائيل على لبنان، سيمنعها من هذا الهجوم. غير أن القيادة الإسرائيلية قد يكونون على استعداد للمجازفة بوقوع عدد كبير من القتلى المدنيين الإسرائيليين من أجل توجيه الضربة القاضية إلى الحزب. هذا، وقد استثمرت إسرائيل منذ حربها على لبنان عام 2006 مبالغ هائلة في البنية التحتية للدفاع المدني، وأجرت تدريبات دفاع مدني سنوياً وكأنها تعدّ جبهتها الداخلية لضربات ثارية محتملة. وهي في كل الأحوال عاجزة بنوياً عن تصوّر نفسها في العالم العربي - الإسلامي إلا في موقع «السيد»، وعبر لغة القوة. بل إن قادتها قد يستسيغون هجوماً [من حزب الله] على المدنيين الإسرائيليين لكي يثيروا هستيريا داخلية ويضمنوا تعاطفاً عالمياً مع نهاية إجرامية إسرائيلية. لكن إذا واصلت ضربات حزب الله الثأرية إيقاع ضحايا مدنيين إسرائيليين بما يتجاوز حداً معيناً، فإنه لن يكون في مقدور إسرائيل إعلان نصر عسكري بعد حربها الماحقة، وقد يخرج الدماء المتبادل بين الطرفين عن السيطرة.

\* باحث أميركي. يصدر له قريباً كتاب جديد عن دار الآداب بعنوان: «هذه المرة تهادنا كثيراً».